الفصل السادس والعشرون

فقه اللغة فى القرنين الأخيرين[1]

فقه اللغة اليونانية :

امتاز اليونانيون فى عصرهم الذهبى باستعمال لغة من أجمل اللغات بأقل شعور بقواعد النحو . ومن هذه الجهة كانوا على طرفى نقيض مع الهنود الذين شعروا شعوراً حاداً بالفروق الدقيقة فى النحو والصرف (لا سيما تلك الأمور التى تمس المورفولوجيا والفونولوجيا فى زمن متقدم جداً ، قروناً قبل الأمم الأخرى[2] وقد أشاع القلق فى هدوء اليونان وسعادتهم اللغوية علماء المنطق من أمثال بروتاجوراس الأبديرى (القرن الخامس قبل الميلاد) والفلاسفة ، أمثال أرسطو وزينون الكتيونى (النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد) ، ولكن قواعد اللغة لم تبدأ فى اتخاذ شكل معين حتى القرن الثالث . وقد بيّنا فى الفصل الثالث عشر جهود نحاة الإسكندرية فى القرن الثالث . ومن الواضح أنه لم يكن من اليسير درس النصوص القديمة ، كما فعل زينودوتوس وكاللیماخوس وإراتوستيس دون حل صعوبات معجمية « قاموسية » أو نحوية . وفى النقد الأدبى نفسه مشكلات نحوية . ومن جهة أخرى فإن تحليل الجمل المنطقى الذى بدأه زينون تطور على أيدى الرواقيين الآخرين ، أمثال كريسيبوس السولوى (النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد) وديوجنيس البابلى (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) ، وقاد منطق الرواقيين إلى النحو . وقد أرسل ديوجنيس إلى روما سنة ١٥٦ كعضو فى وفد أثينى ، وحمل معه الفلسفة الرواقية والمنطق والنحو اليونانى ، وبذور النحو اللاتينى . وتحليل أية لغة لا يقود إلى نحوها فقط ولكنه يقود إلى شعور عام بالنحو .

وفى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد . أدت المنافسة الشديدة بين مدرسة الإسكندرية القديمة ومدرسة برجامه الحديثة إلى نشاط الدراسات الفيلولوچية . وفى كلتا المدرستين كانت المكتبة مقر هذه الدراسات . وعلى رأس النحاة فى الإسكندرية أريستوفانيس البيزنطى (توفى سنة ١٨٠ ق.م.) وأريستارخوس الساموتراكى (حوالى ٢٢٠ — ١٤٥) .

وقد أعد أريستوفانيس من هوميروس ومن أصل الآلهة . لهزيود طبعات أفضل . وكان أول من جمع أشعار پندار ونشرها وقام بتحقيق مسرحيات يوريپيديس وأريستوفانيس ووضع قاموساً يونانياً Lexeis . وقام ببحوث فى القياس والشذوذ فى النحو .

وأكبر دعامة لشهرته ابتداعه (أو تحسينه) لوسائل وضع النبرات والترقيم ومن الخطأ أن يظن أنه ابتدع النبرات والترقيم نفسيهما . فهذه قديمة قدم استعمال الناس لغة الخطاب . ومن المحال أن ينطق أحد نطقاً صحيحاً وأن يفهم بوضوح دون وضع النبرات وتجميع الألفاظ وتقسيم الجمل . وحين صارت اللغة أشكالا مكتوبة ، أصبح من الضرورى ، أو على الأقل من الملائم ، تبين نبرات الألفاظ وتقسيم الكلمات بواسطة الرموز ، فهل كان أريستوفانيس أول من فعل ذلك قطعاً ؟ ربما كان الجواب بالنفى ، والراجح أنه تفوق على من سبقه وكان أكثر دقة .

كانت هذه التغييرات الجديدة من الأهمية بمكان ، وفى وسع أى باحث أن يدرك بسهولة إذا اضطر أن يقرأ نصاً بدون ترقيم أو حروف كبيرة (مثال ذلك فى اللغة العربية)[٣] .

وجدير بالذكر أنها لم تنل قبولا مدة طويلة . وأقدم المخطوطات اليونانية واللاتينية ليست خالية من الترقيم فحسب ، بل ومن الفواصل بين الكلمات وهناك مخطوطات متأخرة ترجع إلى القرن الثالث عشر ولا ترقيم فيها . أما من قاموا بنشر الطبعات الأولى فقد حاكوا المخطوطات وألفوا معظم علامات الترقيم والفواصل بين الكلمات . ولم تستخدم الفواصل بوجه عام إلا بعد ستة

عشر أو سبعة عشر قرناً من وفاة أريستوفانيس . حين عرفت بدرجة كافية واستقرت فى فن الطباعة .

ولا يرجع هذا التأخير الطويل إلى مجرد الكسل . بل إلى سيطرة الرواية الشفوية على الرواية المكتوبة . كانت الكتابة (والطباعة فى أول ظهورها) طريقة لتمثيل اللغة الحقيقية (لغة الكلام) وكانت تستهدف إثارة المعانى فى النفس بدلا من أن تكون تامة مفصلة . وهذا يصدق بوضوح فى كتابة اللغات السامية التى لا تدمج الحروف القصيرة اللينة ، وتنطق ذلك بصورة أصدق جد ا على لغات كاللغة الصينية ، وليس فيها إشارة ألبتة إلى كيفية النطق أو النبرات[٤] . ويبين الهجاء الإنجليزى عدم الكفاية الأساسية للغة المكتوبة إذا قورنت بلغة الخطاب ، على الرغم من أن اللغة الإنجليزية قد تطورت تطوراً كبيراً فى أنحاء كثيرة . فهناك كثير من الكلمات الإنجليزية لا يستطيع أجنبى أن يرفع صوته عند قراءتها ، إذا لم يكن يعرف من قبل كيفية النطق بها .

خلف أريستارخوس الساموتراكى أريستوفانيس فى رياسة المكتبة ، وكان مسنًّا ، حوالى ١٨٠ ق.م . ثم رحل إلى قبرص ، حيث توفى حوالى سنة ١٤٥ . كان أولا وقبل كل شىء ناقداً أدبيًّا وضع شروحاً hypomnémata, syngrammata على الكتب الكلاسيكية . وقارن اللهجة الهوميرية باللهجة الأتيكية . وهذه المقارنات تمس الكلمات نفسها Lexicography أو ترتيبها أو تعريفها ، أو تكوين الجملة Syntax . وقد ميز بروتاجوراس جنس الأسماء ، وبعض الأزمنة والصيغ . أما أرسطو فعرف ثلاثة أجزاء من الكلام : اسم . وفعل . والتكملة . وعرف أريستارخوس ثمانية أجزاء : اسم (ونعت) . وفعل واسم فاعل أو مفعول ؛ وضمير . وأداة تعريف . وظرف ، وحرف جر . وحرف عطف .

وفى أثناء ذلك كان كراتيس المالوسى يقوم ببحوث مشابهة فى برجامه ، وكان لا بد له أن يصل إلى النتائج نفسها . وزاد ذوقه النحوى بمقارنة اللغتين اليونانية واللاتينية . وفى الواقع لا مناص من التفكير فى النحو إذا ما استعمل

المرء لغتين . ويقال إنه أول من ألف فى النحو اليونانى ، وينبغى أن يؤخذ هذا بحذر . تحليل لغة يشبه تحليل الجسم البشرى ، ومن العسير أن يقال متى بدأ ذلك ومتى انتهى . والنحو كالتشريح لم يبتدع فى وقت واحد بمجهود فردى وإنما عولج غير مرة وبأقدار صغيرة . كان عمل كراتيس بلا ريب عظيماً ، ولكنا لا نستطيع أن نقيسه بدقة لأن مؤلفه النحوى ضاع . وأقدم كتاب فى النحو وصل إلينا ، وضعه أحد تلاميذ أريستارخوس وهو ديونيسيوس ثراكس[٥] (النصف الثانى من القرن الثانى ، ولد حوالى سنة ١٦٦) ، وازدهر فى الاسكندرية ورودس . فكتابه فى النحو techné grammatice, ars[٦] grammatica كان نموذجاً لكل كتب النحو فى العصور المتأخرة ، لا فى اليونانية فقط ، بل فى اللاتينية والأرمينية[٧] ، وبطريق غير مباشر فى جميع اللغات الهندية الأوربية الأخرى . يقول جلبرت مرى : « كان من أحسن الكتب المدرسية فى العالم ، وقد بقى الأساس والعمدة فى تعليم النحو اليونانى حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، وكان يستخدم فعلا فى مدرسة ميرشانت تيلور عندما كان أحد أعمامى البعيدين تلميذاً صغيراً هناك . وأدى ديونيسيوس للنحو ما أداه إقليدس لعلم الهندسة . واستمر كتابه مدة تكاد تساوى المدة التى استمرها كتاب إقليدس[٨] .

ويعتبر نشره فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد علامة مؤكدة على انتهاء عصر عدم التعلق بالنحو . وما كان أسعد الصبى الأثينى القديم الذى عاش زمناً يتكلم أجمل لغة فى العالم دون أن يقاسى الآلام فى تعلمها كما نفعل . وإتقان لغة يحتاج إلى جهود كبيرة ، وإذا لم نستعملها استعمالا كافياً فنحن معرضون لنسيانها ، ولا بد أن نتعلمها ثانية . أما الغلام الأثينى فى القرن الرابع ، فلم يكن عليه أن يتعلم لغته الأصلية ، ولم يكن من الممكن أن ينساها .

وتسببت قصة وضع النحو القديم فى إغفاله لاثنين من فقهاء اللغة يذكرهما الناس لأعمال جليلة أخرى ، وهما : ديميتريوس الاسكيبسى وأپولودوروس

الأثيني . ولعلهما أقرب إلى علم الآثار منهما إلى علم النحو .

ديميتريوس (حوالى ٢٠٠ — ١٣٠) ازدهر فى سكيبسيس من أعمال طروادة ، وكتب تعليقاً على ثبت السفن فى هوميروس (إلياذة ، ٢ ، ٨١٦ — ٨٧٧) ، وكان يسميه التنظيم الطروادى Tröicos diacosmos[٩] ويقع فى ثلاثين كتاباً ، وكان مصدر الكثير من المعلومات القليلة الجدوى . أما أپوللودوروس الأثينى فكان تلميذاً لأريستارخوس السكندرى ، ترك الإسكندرية سنة ١٤٦ . ولعله استقر فى برجامه بدليل أنه أهدى أهم مؤلفاته : « كرونيكا » ، إلى أتالوس الثانى فيلادلفوس (ملك برجامه ١٥٩ — ١٣٩) ، وقد ألف مشروحاً على هيروس ودراسات فى الاشتقاق والجغرافيا والأساطير ، ويختلط كتابه فى الميثولوجيا ، عن الآلهة برسالة أخرى فى الميثولوجيا مسماة مكتبة أپوللودوروس وقد وضعت بعده بقرنين على الأقل .

وكثيراً ما ساعد أولئك الذين يتحدثون أكثر من لغة على زيادة الإحساس اللغوى فى العالم اليونانى الرومانى . كان على المثقفين فى الغرب أن يعرفوا لغتين اليونانية واللاتينية ، أما فى الشرق فلم يعرفوا دائماً اللاتينية ، وكانوا يلمون باللغات الشرقية . وزعم إنيوس أن له ثلاثة أرواح[١٠] ؛ لأنه كان يستطيع التحدث بثلاث لغات ، اليونانية والأوسكية واللاتينية . وكانت لغته الثانية الأوسكية ، أكثر اللهجات الإيطالية قبولا ، لأنها كانت مستعملة فى أرجاء إيطاليا الجنوبية . أما اللاتينية التى أصبحت اللغة الرسمية لروما ، فقد كانت فى مبدأ الأمر محدودة جداً من الناحية الجغرافية . وقد بقيت الأوسكية تستخدم حتى بعد أن هزم الأوسكى أو الأبيكى Osci or Opici وأصبحوا فى طى النسيان . وبقيت حية فى روما نفسها فى القصص الأتيلانية Fabulae Atellanae وهى روايات كوميدية ريفية ، مرحة جداً ، وبذيئة ، تستخدم فيها الأوسكية وكانت رائجة لدى عامة الشعب .

وإذا كان لإينيوس أرواح ثلاث ، فكم كان عدد أرواح ميثريداتيس الأكبر ؟ ربما كان يعرف ما يقرب من خمس وعشرين لغة ! ! والحق أن

جيليوس يخبرنا أن ميثريداتيس كان يتكلم لغات الأمم التى أخضعها ، أو كان على الأقل على اتصال بها وعددها خمس وعشرون . وقد يبدو ذلك محالا فى نظر الرجل الأمريكى الذى لا يعرف إلا لغة واحدة . ولكنه بكل بساطة انعكاس لتعدد اللغات المنتشرة فى الشرق الأدنى . استمع إلى شهادة پلينى عن مدينه ديوسكورياس من أعمال كولخيس :

كانت المدينة الكولخية ، ديسكورياس الواقعة على نهر أنتيموس والتى هجرها أهلها الآن — شهيرة فى يوم ما ، حتى إنه نقلا عن تيموستنيس[١١] كان فيها ثلثمائة قبيلة تتكلم لغات مختلفة اعتادت على التخاطب بها ، وكان تجار روما يقومون بأعمالهم هناك بمساعدة هيئة من التراجمة يبلغ عددها مائة وثلاثين مترجماً[١٢] .

وعلى ذلك ليس من المدهش أن يتقن ميثريداتيس خمساً وعشرين لغة . لقد جعلته الظروف يجمع اللغات كما اضطرته إلى أن يجمع النباتات والسموم والمعاجين والترياقات . وقد تلألأت شهرة ميثريداتيس الذى يتكلم لغات كثيرة إبان عصر النهضة . وعندما نشر العالم الطبيعى العظيم كونراد جيسنر بحثه فى اللغات أطلق عليه اسم ميثريداتيس[١٣] . وكان هناك اثنان من علماء النحو اليونانى الممتازين فى عصر أغسطس ، هما : ديونيسيوس الهاليكارناسى وديديموس[١٤] .

وقد وفد ديونيسيوس من هاليكارناسوس ولمع فى روما ، وسبق أن تحدثنا عن كتابه « تاريخ روما » Rhomaice archaiologia إلا أنه كان قبل كل شىء أديباً وعالما من علماء الخطابة والنحو ، أجهد نفسه ليكفل صفاء اللغة اليونانية . وربما كان أول ناقد مبرز فى عصره ، وقد ألف كتباً فى مزايا الخطباء القدامى ومميزات ثيوسيديديس وأفلاطون وغيرهما (وإن كان لا يحب أسلوب أفلاطون) ، وكتباً أخرى فى ضرورة محاكاة المؤلفين المجيدين ، واختيار الألفاظ ، وأحسن ترتيب لها . ولم يكن يكفى فى رأيه أن يعرف المرء اليونانية بل ينبغى أن يعرفها جيداً ، وإن لم يكن ذلك ميسوراً . كان ديونيسيوس

الهاليكارناسى من أحسن الذين تصدوا للدفاع عن اللغة اليونانية فى وقت تعرضت فيه للخطر بسبب إقبال الرومان عليها وإقبال أمم أجنبية أخرى.

حمل ديديموس لقب « ذو الأمعاء البرونزية » Chalcenteros بسبب جده واجتهاده الذى فاق كل جد . وكان يدافع فى الإسكندرية عن الأمر الذى كان يدافع عنه ديونيسيوس . وقد فسدت اللغة اليونانية فى الإسكندرية أكثر منها فى روما ، إذ أساء استعمالها قوم جهلة . وقد وضع ديديموس بحوثا فى الأدب اليونانى ووقف جهوده على نشر هوميروس وثيوسيديديس والخطباء القدامى .

فالعمل الذى كان يناضل من أجله رجال من أمثال ديونيسيوس وديديموس يمكن أن يقارن بما يقوم به إنجليز أو فرنسيون للمحافظة على الأدب الإنجليزى أو الفرنسى على أعلى مستوى فى بلاد نائية وهو عمل شاق جداً . وإن كانت مزاياه عظيمة . لأن الأدب الجيد أقوم سبيل لنشر الحضارة .

وقف الباحثون اليونانيون السابقون جهودهم على الدفاع عن اللغة والثقافة اليونانية وشرحها فى مصر وآسيا بين أناس لغتهم الأصلية هى اليونانية ، وإن انحطت بتأثير البيئة الأجنبية[١٥] ، أو بين الرومان الذين لم تكن اليونانية بالنسبة لهم إلا لغة أجنبية . وهناك فئة ثالثة يجب أن ننظر فى أمرها ، أعنى اليهود الذين انتشروا فى جميع أنحاء العالم اليونانى الرومانى ، ولا سيما فى المدن الكبرى فى مصر وسوريا ، وفى روما ومدن أخرى فى الغرب . إلى أى حد استجاب اليهود للغة اليونانية ؟ لقد سبقت مناقشة هذا الموضوع عندما عرضنا للترجمة السبعينية Septuagint فى الفصل الرابع عشر ، والديانة اليهودية فى الفصل السادس عشر . ولكنه موضوع بالغ الأهمية جدير بأن نعود إلى بحثه مرة أخرى .

كان لليونانيين مكان الصدارة فى سوريا ، وكانوا يتحرقون شوقاً إلى الدفاع عن الحضارة الهلنستية . وقد حمل أحد حكامهم ، انطيوكس الرابع إپيفانيس لواء الهلنستية إلى درجة أشعلت الثورة المكابية (فى سنة ١٦٨) . وقد نجح

اليهود فى الدفاع عن ديانتهم ، ولم ينجحوا فى الدفاع عن لغتهم . واستمر انتشار الحضارة الهلنستية لا على أيدى أمراء من اليونانيين فحسب ، ولكن على أيدى بعض المكابيين (أو الهاسمونيين) وعلى يد هيرود الأكبر (٤٠ — ٤ ق.م) . ملك يهوذا (اليهودية تحت لواء الرومان) .

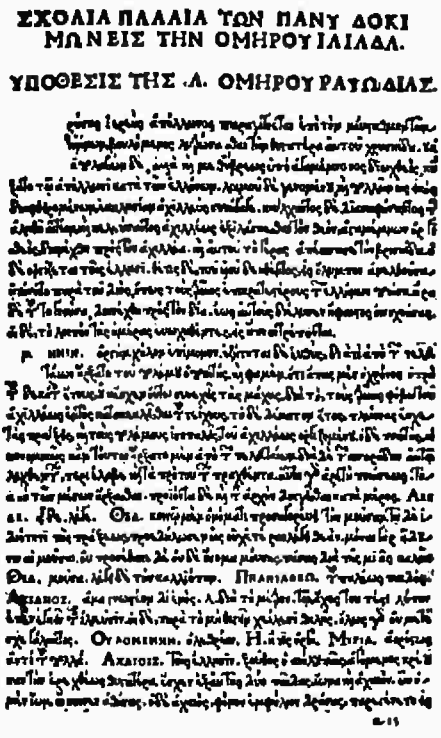
ΣΧΟΛΙΑ ΠΑΛΑΙΑ ΤΩΝ ΠΑΝΥ ΔΟΚΙ
ΜΩΝΕΙΣ ΤΗΝ ΟΜΗΡΟΥ ΙΛΙΑΔΑ.

ΥΠΟΘΕΣΙΣ ΤΗΣ .Α. ΟΜΗΡΟΥ ΡΑΨΩΔΙΑΣ.

شكل ١٠٦ — ديديموس (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) تعليقات قديمة من أحسن طراز على إلياذة هوميروس Hypothesis of Homeric rhapsody ، نشره يانوس لاسكاريس وقام بطبعه أبيلوس كولونيوس (فوليو ، ٣٠ سم ، زومة ، ١٥١٧) كتب البابا ليو العاشر فى السابع من شهر سبتمبر ، ١٥١٧ خطاباً باللغة اللاتينية فى السنة الخامسة من ارتقائه كرسى البابوية ، يقدم فيه هذا الكتاب ، ونشر خطابه فى آخر الكتاب فوق الخاتمة اليونانية. وقد كان يانوس لاسكاريس (١٤٤٥ — ١٥٨٥) يمثل المرتبة الثانية بعد ألدوس ما فوتيوس كناشر للأدب اليونانى فى أوائل عصر النهضة Emile Legrand, Bibliographie hellénique (باريس ، ١٨٨٥) ، المجلد الأول ، ص (١٥٩ — ١٦٢) .

كان عدد كبير من يهود مصر وسوريا يتكلم اليونانية ، وكانت لغتهم الأصلية ، فلم يكونوا فى حاجة إلى تعلمها ، إنهم كانوا يعرفونها . ومن المحتمل أن إلمامهم بلغتين جد مختلفتين كاليونانية والعبرية قد أيقظ فيهم إحساسهم النحوى . وإن كان هذا قد حدث ، فهم قد عرفوا كتاب ديونيسيوس ثراكس المسمى صناعة النحو Techne Grammatice وأخـــذوا عنه . والحق أن

ديونيسيوس (ولد حوالى ١٦٦) كان جاراً لهم وجهوده ربما كانت من أحسن ماعرف فى الإسكندرية ورودس حيث ازدهر [١٦] .

وفى قيصرية[١٧] ، وهى مدينة بناها هيرود الأكبر ، كان هناك يهود يقرءون صلوات : « اسمع » [١٨] . . . باللغة اليونانية . . فضلا عن وجود أكاديمية للفلسفة اليونانية فى فلسطين. يقول رابان سيمبون بن جاماليل الحاخام: « كان هناك ألف شاب فى بيت أبى ، خمسمائة يدرسون القانون (اليهودى) ويدرس الخمسمائة الآخرون الفلسفة اليونانية[١٩] .

وكان رؤساؤهم يعرفون اليونانية معرفة لا بأس بها ، ولم تكن معرفة الجماهير اليهودية أجل من معرفة من يتخاطبون باليونانية ممن يقيمون فى الشرق ، ويدل على انتشار الحضارة الهلنستية بين اليهود فى الشرق عدد كبير من الآثار اليهودية والتحف الفنية التى تحمل طابع ذلك العصر[٢٠] ، ووجود كلمات يونانية كثيرة فى المؤلفات العبرية[٢١]

وقد استخدم يهود كثيرون النثر اليونانى فى الكتابة ، ونظم بعضهم شعراً باللغة اليونانية . ومن أمثلة ذلك فيلون الأكبر الذى كتب ملحمة عن بيت المقدس Peri ta Hierosolyma . وألف ثيودوتوس ملحمة فى تاريخ شيشيم Shechem[٢٢] ووضع حزقيل تراجيدية عن الخروج Exodus[٢٣] ومن المحتمل أن هؤلاء الشعراء ازدهروا فى القرن الثانى قبل الميلاد . لاحظ أن الأول والثانى يحملان اسمين يونانيين كما كان الشأن بالنسبة لكثيرين غيرهم من اليهود فى ذلك الوقت .

وكثيراً ما كان اليهود فى تشتتهم فى الغرب ، حتى فى روما ، يتقنون اللغة اليونانية أكثر من اللاتينية .

فقه اللغة اللاتينية

كانت الشعوب التى تتكلم اللاتينية بطيئة جداً فى تطبيق قواعد النحو التى وضعها ديونيسيوس ثراكسى على واقع لغتهم ، ولكنهم عندما فعلوا فى النهاية ،

كان أخذهم واضحاً وضوحاً كافياً . والاصطلاحات النحوية نفسها التى نعرفها (مضاف إليه ، مفعول به ، مصدر ، وهلم جرا) فى اللغة الإنجليزية ليست إلا ترجمة خاطئة لاصطلاحات يونانية . ومع ذلك لم يستمتع مؤلفو اللاتينية قط بالصفاء اللغوى الذى استمتع به اليونانيون الأول . وعلى أن هذا الصفاء نفسه دب إليه الفساد أثناء العصر الهلنستى ، لا لمن يتكلمون اليونانية وحدهم ، ولكن لكل من حولهم . وفقد ذاك الفردوس إلى الأبد .

وأصبحنا لا نتعلم نحو اللغات الأجنبية فحسب ، بل نحو اللغة التى نتلقنها من شفاه أمنا ، علينا أن نعرف نحوها جيداً حتى يصبح جزءاً من كياننا ، وعندئذ قد ننساه (أو نظن أننا قد نسيناه)، فبعد أن يبلغ الإحساس النحوى ذروته ، يقبع النحو الذى تعلمناه فى اللاشعور ، وعندئذ نملكه حقاً . ألا ينطبق ذلك على جميع فروع المعرفة ؟

ولنعد إلى اللغة اللاتينية : فمن الواضح أن كل رومانى حاول أن يتقن اللغة اليونانية ، وكل يونانى درس اللغة اللاتينية ، كان من المحتوم عليه أن يقوم بعمل مقارنات نحوية ، وأن يسأل نفسه أسئلة فى النحو . ويجب أن يفترض أن المربين اليونانيين ، وهم يشرحون لطلبتهم النقاط الدقيقة فى الأسلوب الأتيكى كانوا يعطونهم ، عمداً أو دون عمد ، دروساً فى النحو . ولهذا يبدو كسل النحاة اللاتين النسبى أو تباطؤهم أمراً مدهشاً .

لم تدرس غالبية الرومان اليونانية ، إلا أنهم كانوا أذكياء ، أو بعبارة أدق إذا كان ذكاؤهم موجهاً توجيهاً صحيحاً ، أيقظت المقارنة بين اللغة اللاتينية واللهجات الإيطالية المختلفة حساسيتهم الفيلولوجية . وكثيراً ما ينسى المرء أن اللغة اللاتينية فى أول نشأتها كانت لهجة منطقة صغيرة نسبياً ، مدينة روما وإقليم لا تيوم ، ثم زادت تلك الرقعة تدريجياً واتسعت بعد انتصار الرومان على الإيطاليين والأقطار الأخرى . وليس معنى هذا أن اللاتينية حلت دفعة واحدة محل اللهجات المحلية ، ولم يكن ذلك ممكناً ، أو كان حلولها كالمألوف بطيئاً ، بدأت على مراحل فى أماكن مختلفة تبعاً لتاريخ الفتح ، وسارت ببطء أكبر

فى الأقاليم التى عظمت فيها المقاومة . وكان عليها أن تحل محل اللهجات الإيطالية مثل الأوسكية والأومبرية واللهجات غير الإيطالية مثل الأترسكية والليجورية ، وخارج إيطاليا كان عليها أن تنافس الكلتية والايبرية والليبية والبونية وكثيراً غيرها .

ولما كانت اللاتينية هى لغة الإدارة ، كان على كل مواطن رومانى أراد الالتحاق بإحدى الوظائف فى الحكومة المركزية أو المقاطعات أن يتعلمها . وكانت أفضل مدرسة لها هى الجيش الرومانى الذى جند عسكره من كل ولاية . فضلا عن أن الضباط والموظفين والتجار الرومان استقروا فى الأقطار الأجنبية بعد فتحها بفترة قصيرة . ونقلوا معهم لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم .

وعندما جاء المسيح ، كانت هناك لهجات كثيرة ما زالت حية ، ومع ذلك أصبحت اللاتينية لغة دولية لا مجرد لغة قومية .

ومع كل الاعتبارات كانت دوليتها أسرع من اليونانية ، وإن كانت لم تعمر مثلها ، فاليونانية مازالت لغة حية إلى اليوم يتكلمها أناس كثيرون فى جميع مدن العالم ، فى حين نسيت اللغة اللاتينية ، فيما عدا بعض الكنائس والأديرة .

كان أول النحاة أو فقهاء اللغة من الرومان لوكيوس أيليوس ستيلو برايكونينوس الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد . وأصله من بلدة لا نوفيوم من أعمال لاتيوم . وتكلم اللاتينية منذ طفولته . وكان من علماء الآثار والنقاد . كتب شروحاً لغوية لقانون الألواح الاثنى عشر[٢٤] ولكتابات قديمة أخرى ، ونشر طبعات محققة من مؤلفات إنيوس ولوكيليوس . وباختصار كان ستيلو أول باحث بدأ فى روما ما كان يقوم به نحاة اليونان فى الإسكندرية منذ قرن. وتتلمذ عليه كل من فارو وشيشرون . واستمد تفكيره من النماذج اليونانية ولا سيما مناطقة الرواقيين ونحاتهم أمثال خريسيبوس السولوى (النصف الثانى من القرن الثالث ق.م) ، وهو نفسه من أتباع المذهب الرواقى .

ومن المبالغة أن يسمى ماركوس توليوس تيرو ، عتيق شيشرون ، وكاتم سره ، فقيهاً فى اللغة ، وإن كان قد اخترع الاختزال فى اللغة اللاتينية ، وعاونته مذكراته المختصرة التى سميت فيما بعد رموز تيرو notoe Tironianae على الاحتفاظ بخطب شيشرون وكتاباته الأخرى . ومن الطبيعى أن أى كاتم سر ذكى ، يدون إملاء مستمراً فى زمن طويل أو مقيد ، يحاول ابتداع بعض الوسائل التى تسهل عليه عمله . وقد كتب تيرو رسائل شخصية Epiostulae وألف كتاباً فى اللغة اللاتينية لا نعرف عنه شيئاً إلا عنوانه الجذاب :

De usu atque ratione Linguae Latinae (فى استعمال اللغة اللاتينية وفلسفتها) .

ونستطيع أن نتحدث فى اطمئنان عن فارو صاحب الكتاب العظيم فى اللغة اللاتينية De lingua Latina libri XXV وهو أحد كتابين وصلا إلينا (والآخر فى الزراعة) ، ولسوء الحظ لم يصلنا إلا قسم من الأول . وصلتنا خمسة أجزاء من الخامس إلى العاشر (والخامس والسادس كاملان) ويمكن تصور خطة الكتاب العامة كما يلى . الجزء الأول مقدمة تلقى نظرة عامة على الموضوع كله . والأجزاء من الثانى إلى السابع تشرح أصول الكلمات وانطباقها على الحسيات والمعنويات ، والثامن إلى الثالث عشر تعالج إعراب الأسماء والأفعال ، والرابع عشر إلى الخامس والعشرين تعالج قواعد اللغة ، والأجزاء : من الخامس إلى الخامس والعشرين مهداة إلى شيشرون . ثم وضع الكتاب كله قبل مقتل شيشرون بقليل سنة ٤٣ . لم يكن اشتقاق ڤارو للكلمات فى أغلب الأحوال سوقيا ولا خياليًّا كما صنع القدامى (فى العبرية أو اليونانية) ؛ لأنه لم تتوافر لديهم معرفة لغوية كافية تسمح بمعرفة أصول الكلمات[٢٥] كان عقليته فلسفية على نحو الرواقيين . وربما كان أول من أدرك فكرة أساسية فى النحو الحديث ، ألا وهى أن المستويات اللغوية Le bon usage ليست مطلقاً مستقرة ولا نهائية "Consuetudo dicendi est in motu" أى إن طرق الكلام فى تحرك مستمر . وقد حفظ لنا كتابه مقتطفات مختلفة واصطلاحات

وأشكالا قديمة اولاه لضاعت ، ومن المؤسف حقاً أنه لم يصلنا إلا خمسه فقط .

وآخر نحوى نذكره ربما كان خارج إطارنا ، وهو فاريوس فلاكوس الذى ينسب إلى عصر أغسطس ، وإلى آخره ، كان عتيقاً أثبت أنه مرب ممتاز ، يعهد إليه بالإشراف على تعليم أحفاد أغسطس . وضع كتباً تعليمية وأخرى فى النحو Libri rerum Etruscarum (فى الإترسكيين) Libri rerum memoria dignarum (الأشياء الجديرة التذكر) De orthographia (فى الهجاء وغيرها) . وأهم مؤلفاته نوع من المعاجم الموسوعية ، وكتابه هذا أقدم نوع منها فى اللاتينية De verborum significatu وهو محفوظ جزئياً فى مختصر بومبيوس فيستوس P. Festus (القرن الثانى) وپاولوس دياكونوس P. Diaconus (النصف الثانى) من القرن الثامن . وقد نقل عنه پلينى الأكبر (النصف الثانى من القرن الأول) بعض المعلومات ، وبذا وصلت إلينا .

M.T.VARRONIS DE LINGVA LATIa

Quemadmodū uocabula essent ipsi ta rebus i lingua latina seu libris expo nere instituī. De his tris ante hūc fe ci quos Sepimio mīsi.in quibus est de disciplina quā uocat etymologicē Quę cōtra ei dicerunt uolo nunc pri mo:quę pro ea secundo: quę de ea tertio. In .iis ad te scribam. a quibus rebus uocabula impōsita sint in lingua latina: & ea quę sunt in cōsuetudine apud poetas:cui unius cuiusq; uerbi natura sint duę: a qua re: & in qua re uocabulū sit ipositū. Ieaq; qua re fit per similitudinē cū se quisq; ostendit uti esse a prendo.in qua re sit ipositū dē eū demōstrauit:i q nō debet pēdi & pendēt pernacitē esse. Quod i quo oporteat manere si in eo persistet pūacia sit prioré illā partē ubi est & unde sint illa uerba seruantur.greci uocant etymologian. Illā alterā de quibus duabus rebus in his libris .primo scripsi dicit:sed ex illis de posteriore. Quę ideo sunt ob scura q̄ neq; omnis ipositio uerboꝝ extat: q̄ uetustas quasdā delenit: nec quę extat sine modo ois ipositus: nec quę recte est ipsita omnēta manēt. Multa enī uer ba litteris cōmutatis sunt ꝛrepellata:neq; ois origo ē nostrę linguę Euemaculis uerbis. Et multa uerba ali ud nunc ostēdunt:aliud ante significabāt ut hostis. Nā tū eo uerbo dicebāt peregrinū: qui suis legibus utere tunc dicūt eū quē tūc dicebant perduellē. In quo ꝑ e nere uerbo tū tua cātta erit illustrius ūde uideri possit a

شكل ١٠٧ — ڤارو (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) De Lingua Latina طبعة پومپونيوس لايتوس (١٤٢٥ — ١٤٩٨) ، الذى أسس الأكاديمية الرومانية ، وكان على رأس علماء الإنسانيات فى زمانه . تمتعت الأكاديمية الرومانية بعصر ذهبى تحت رياسة پومپونيوس ، فى أثناء تولى البابا ليو العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) . وقد كانت إحدى ضحايا نهب روما الذى قام به شارل كوينت فى ١٥٢٧ . (كوارتو ٢٢ سم ، ٨٤ ورقة) (روما : جيورجيوس لاوير بدون تاريخ) ومن المحتمل أن تاريخها هو سنة ١٤٧١ . أول صفحة من نص ڤارو . وحرف Q الكبير كتبه بالمداد الأحمر رسام .

وأقدم كتاب فى النحو اللاتينى وضع فى زمان متأخر (حوالى ٦٧ — ٧٧)

ألفه كوينتوس ريميوس پالايمون Q.R. Palaemon (النصف الثانى من القرن الأول) . وهو فى الغالب عتيق أو يونانى ، واسمه يؤذن بأنه يونانى. وإذن فلم يستقر النحو اللاتينى قبل العصر المسيحى ، رغم المثل البارع الذى ضربه يونانى آخر هو ديونيسيوس ثراكس .

وفى الوقت الذى فتح فيه الرومان العالم وخلدت اللاتينية فى مؤلفات أدبية بلغت الذروة ، لم يكن تحليلها قد تم بعد . وبقيت مفرداتها غير كافية وكان كتاب الرومان لا يزالون يعتمدون على اليونان . كما تحقق فى أحوال كثيرة على يد فلاسفة كشيشرون أو مؤلفون فى العلوم والفنون أمثال ڤتروڤيوس . ومن العسير معالجة الفلسفة أو الفنون دون استخدام ألفاظ يونانية ، وكان أعظم شعراء الرومان ينتحلون من النماذج اليونانية .

ويوضح ذلك صعوبة التأليف فى النحو . كما يبين بطء الرومان فى الاقتراب منه . واليونانيون أنفسهم ما كانوا يستطيعون إتمامه لو لم يدفعهم ازدياد الصبغة العالمية وكثرة اللغات التى يتحدثونها . ومع مضى الزمن أصبح الشعب الذى يتكلم اليونانية عاجزاً يوماً بعد يوم عن التحدث بالفصحى دون جهود مستمرة ، كالأجانب الذين كانوا يتعلمون اليونانية بمشقة. وبصورة غير طبيعية . كانوا فى حاجة إلى كتب فى النحو وإلى المفاهيم والأدوات الأخرى . وعلى هذا فلا غرو أن رأى هذا العصر ظهور علم النحو .

وعلى رجال العلم ألا يظنوا أن ذلك كان عملا صغيراً . وبطبيعة الحال لا يعد وضع كتاب نحو فى لغة معروفة عملا علمياً اليوم . أما واضعو النحو الأول أمثال ديونيسيوس ثراكس . أو سلفه ديوجنيس البابلى وكراتيس المالوسى الذين حاولوا أن ينسقوا نتائج تطور طويل . فقد قاموا بعمل علمى ذى أهمية ضخمة ومزايا كبيرة والكشف عن التكوين المنطقى للغة ما عمل علمى يشبه الكشف عن تركيب الجسم التشريحى . ولم يظهر الوعى اللغوى إلا تدريجياً ، وبالتالى كان الكشف عن تكوين اللغة المنطقى بطيئاً جداً ، دون ذكر أسماء من قاموا به .

ووضع أول نحو للغة ما يعتبر عملا علمياً ، وإن كان قليل الأهمية . وفقيه اللغة الذى يضطلع بهذا العبء يقدر مقدماً أن لكل لغة نحواً ، ويعرف بجلاء ما هو بصدده . ومن الممكن مقارنته بالباحث فى علم الحيوان الذى يشرح لأول مرة حيواناً عثر عليه حديثاً . فكل الأنسجة والأعضاء متشابهة فى نظره ، وهى معروفة من دراساته السابقة ، وتشريح هذا الحيوان ما هو إلا صورة أخرى لتشريح كثير غيره . وباختصار إن وضع كتاب فى النحو لا يمكن مقارنته ألبتة بوضع علم النحو نفسه ، على نحو ما اضطلع به نحاة اللغة السانسكريتية واللغة اليونانية الأول .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن المحاولات العلمية كيفما كانت تؤدى إلى شىء من الدقة فى البحث العلمى . وكل بحث علمى لا يستغنى عاجلا أو آجلا عن ألفاظ وتعبيرات خاصة ، ويكشف عن أفكار جديدة لا بد أن تجد لها تعبيراً وافياً . ولا يكفى أن يستخدم العالم لغة صحيحة ، بل لا بد له أن يعرف بالدقة خواص آلاته وحدودها ، واللغة إحدى هذه الأدوات ، وعليه أن يتأكد من قدرته على التعبير عن أفكاره بدقة وفى غير إبهام . ومن الضرورى أن يتضمن تقدم العلم تحليل اللغة وتحديدها تحديداً كافياً . وعلى هذا كان وضع النحو خطوة أساسية فى تطور العلوم .

كان إقليدس وهيروفيلوس وكراتيسى وهيپارخوس وديونيسيوس ثراكس أبناء بيئة واحدة . اتجه حبهم للاستطلاع وجهات شتى ، وأدوا واجبات متماثلة .

تعليقات

(١) هذه تكملة للفصل الثالث عشر .

(٢) انظر تعليقاتى على ياسكا (القرن الخامس ق . م .) وپانينى (النصف الأول من القرن الرابع ق . م.) . ونحو (قواعد اللغة) السنسكريتية لم يكن معروفاً خارج الهند قبل نهاية القرن الثامن عشر ؛ ولهذا لم يكن من المستطاع أن يؤثر فى النحو الأوربى قبل ذلك . أما تأثيره فى تطور النحو المقارن فقد كان كبيراً فى القرن التاسع عشر ، ولكن هذه مسألة أخرى . سبق نحاة اللغة السنسكريتية العالم فى دراسة الأصوات phonetics ولكنهم لم يكتشفوا حروف الهجاء ، وإنما كان ذلك من عمل الساميين Vol I, pp. 1909 — 111 . وكانت الرواية الشفوية (ولا تزال) قوية فى الهند على شكل غير عادى .

(٣) يمكن معاونة القارىء على تصور الصعوبات التى يسببها عدم وجود ترقيم وعدم ترك مسافة بين الكلمات إن حاول فك طلاسم القطعة التالية :

"thetheoryofrelativityisintimatelyconnected withthe theoryofspaceandtimeishallthereforebeginwithabrief investigationoftheori — giofourideasofspaceaand time althoughindoingsoiknowthatiintro — duceacontrroversialsubhjectttheobjectofallsciencewhethernaturals — ciencearpsy chology is tocoordinateourexp erienecesand toobring themintoalogical systemhowareourcustomary ideasofspaceaandtimerelatedtedtothecharacterofourexperiences" Albert Einstein, The meaning of relativity (Princeton : Princeton University Press, 1945), opening paragraph.

(٤) نطق الحرف الصينى يمكن أن يهتدى المرء إليه بالعنصر الصوتى الذى يحتوى عليه (ص ٧٣ حـ ١ من القسم الأول) .

(٥) ثراكسى أو ثراكوس تعنى تراقيا . ولكن هذا لا يستتبع أنه هو نفسه ولد فى تراقيا ، فقد يكون قد ورث الاسم عن أبيه أو عن أجداده .

(٦) قام جوستاف أوليج بطبع كتاب Ars grammatica (٢٢٤ صحيفة ، ليبزيج ، ١٨٨٣) . ألفرد هليجارو Scholia (٧٠٣ صحيفة ، ليبزيج ، ١٩٠١) . وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية توماس دافيدسون ، انظر : Journal of Speculative Philosophy

(سانت لويس ، ١٨٧٤) ، ١٦ صحيفة .

(٧) Jacquse Chahan Cirbied (1772 — 1834); grammaire de Denis de Thrace tirée de deux MSS. arméniens de la Bibliothéque du Roi

(١٢٥ صحيفة ، باريس ، ١٨٣٠) ، النص باللغات الأرمينية واليونانية والفرنسية .

(٨) Greek Studies by G. Murray (أكسفورد ، مطبعة كلارينـدون ، ١٩٤٦) ص ١٨١ .

(٩) ديموكريتوس الأبديرى كتب رسالتين عنوانهما Megas Micros, diacosmos (التنظيم الكبير والتنظيم الصغير) Diacosmos, تعنى الترتيب أو التفسير .

(١٠) « كوينتوس إنيوس اعتاد أن يقول إن له ثلاثة أفئدة ؛ لأنه كان يتكلم اليونانية والأوسكية واللاتينية » أولوس جيليوس (النصف الثانى من القرن الثانى) ليالى أتيكا ، ١٧ ، ١٧ . وهذا هو المرجع أيضاً عن الخبر التالى الخاص بكثرة اللغات التى كان يتكلمها ميثريداتيس .

(١١) كان تيموسثنيس أمير البحر فى أسطول بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧) ، وقد استعمل إيراتوسثنيس وسترابون مؤلفاته فى تقويم البلدان .

(١٢) التاريخ الطبيعى ، ٦ ، ٥ ، (طبعة لويب ، المجلد الثانى ، ص ٣٤٩) كتب پلينى بعد موت ميثريداتيس بنحو مائة وثلاثين سنة ولكنه أشار إلى تيموسثنيس الذى ازدهر فى القرن الثالث قبل الميلاد . وتقع ديوسكورياس فى النهاية الشرقية للبحر الأسود ، إلى الشرق من بونتوس وهى مملكة ميثريداتيس .

(١٣) ميثريداتيس (زيورخ ، ١٥٥٥) ، انظر كتابى :

Appreciation of ancient and medieval Sience during the Renaissance

(فيلادلفيا : مطبعة جامعة بنسيلفانيا ، ١٩٥٥) ، ص ١١١ . عالج جيسنر مائة وثلاثين لغة ، بعدد اللغات التى كان لها مترجمون من الرومان فى ديوسكورياس . . وقد نشر Johann Christoph Adelung تحت نفس العنوان « ميثريداتيس » بحثاً أكثر عمقاً (أربعة مجلدات فى ستة ، برلين ، ١٨٠٦ — ١٨١٧) . وهذا هو السر فى أن كلمة ميثريداتيس كانت تعنى عند الكثيرين من الناس لغويات ، كما كان إقليدس يعنى الهندسة .

(١٤) ازدهر ديونيسيوس من سنة ٣٠ إلى سنة ٨ قبل الميلاد . ديديموس ولد حوالى

سنة ٦٥ ق . م . ومات حوالى سنة ١٠ بعد الميلاد .

(١٥) كلمة أجنبية barbaric استعملت هنا على النهج اليونانى لتدل على أى شيء أو غير يونانى . كان من يتحدثون اليونانية فى مصر وسوريا أقلية ضئيلة جدا ؛ ولكن كان هناك أناس كثيرون قادرون على الرطانة باللغة اليونانية الركيكة .

(١٦) على الرغم من المثل الذى ضربه ديونيسيوس ، لم يفكر يهودى ممن يتكلمون اليونانية فى استنباط نحو عبرى من واقع اللغة العبرية . ولم يوضع هذا النحو إلا فى عصر متأخر جدا تحت تأثير العرب ، وضعه Saadia Gaon (النصف الأول من القرن العاشر) . ويرجع ذلك إلى أمر مزدوج ، وهو أن النحو العبرى مختلف جدا عن النحو اليونانى وقريب جدا من نحو اللغة العربية .

(١٧) كانت قيصرية هذه على شاطئ السامرة (سماريا) ، وتبعد عن أورشليم ٥٥ ميلا ، إلى جهة الشمال الغربى . وقد أعاد بناءها هيرود الأكبر على مستوى كبير ؛ ثم أصبحت عاصمة ولاية يهوذا الرومانية أثناء ولاية المراقبين والنواب عن الإمبراطور .

(١٨) « اسمع . . . » مختارات من القطع القصيرة مأخوذة من سفر التثنية ، ٦ : ٤ — ٩ ، ١١ : ١٣ — ٢١ ، وسفر العدد ١٥ : ٣٧ — ٤١ ، التى تعبر عن أهم مبادئ العقيدة اليهودية والاسم مأخوذ من أول كلمة من أول قطعة شمع . . . اسمع ...

(١٩) Saul Lieberman : Greek in Jewish Palestine نيويورك ، ١٩٤٢) ص ١ . انظر أيضاً كتابه Hellenism in jewish Palestine (نيويورك نفس جهة النشر السابقة ١٩٥٠) . وهذان الكتابان يعالجان الفترة التى تلت ظهور المسيحية . توفى Rabban Gamaliel الأكبر حوالى ٥٠ بعد الميلاد وكان معلم القديس بولس (أعمال الرسل ، ٢٢ : ٣) .

(٢٠) Ernst Cohn - Wiener : Die Jüdische Kunst (برلين ، ١٩٢٦) ؛ Franz Landsbergere, History of Jewish Art سينسيناتى : اتحاد الكنائس الأمريكية ، ١٩٤٦) Erwin Ramsdell Goodenough : The Jewish Symbols in the Greco-Roman period, (٦ مجلدات ، كوارتو ، نيويورك : بانثيون (١٩٥٣ — ١٩٥٦) .

(٢١) انظر دليل الكلمات اليونانية الذى وضعه Immanuel Loew in Samuel Krauss : Griechische und Latinische Lehnwörter im Talmud. (مجلدان ، برلين ، ١٨٩٨ — ١٨٩٩) .

(٢٢) Shechem أو Sichem بلدة قديمة ورد ذكرها فى التوراة ، وهى أهم بلدان السامرة (سماريا) ، موطن يعقوب ؛ وفيها بئر يعقوب وقبر يوسف . وقد سميت فيما بعد نابلس أو نيابوليس .

(٢٣) Emil Schürer : Geschichte des jüdischen Volkes im Zeitalter Jesu Christi (ثلاثة مجلدات ، ليبزيج ، الطبعة الثالثة ، ١٩٠٩) . ترجمة انجليزية فى ثلاثة مجلدات قامت بها صوفيا تيلور وبيتر كريستى (نيويورك ، ١٨٩١) ، ص ١٥٦ — ٣٢٠ ، ولا سيما ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢٤) الألواح الاثنا عشر مجموعة من أقدم القواعد فى القانون الرومانى ، نقلت عن العوائد القديمة ، ومن العسير تأريخها ، إلا إذا قلنا إنها ترجع إلى أقدم حضارة رومانية وتدل على أن تطوراً حدث ، كانت ذروته القانون المدنى Corpus iuris الذى نشره جستنيان (النصف الأول من القرن السادس) .

(٢٥) فى اشتقاق الكلمات اليونانية واللاتينية بصفة عامة ، انظر Peter Barr Reid Forbes, Oxford Classical Dictionary ص ٣٤١ .